(سورة مريم)

{ كهيعص}

{ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ }

{ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيّاً }

{ كهيعص } قد تقدم فيما سلف أن كل طالب ينادي ربّه ويدعوه إنما يستحق الإجابة إذا دعاه بلسان الحال وناداه باسمه الذي هو مصدر مطلوبه بحسب اقتضاء استعداده في ذلك الحال، علم أو لم يعلم، إذ العطاء والفيض لا يكون إلا بحسب الاستعداد، والاستعداد لا يطلب إلا مقتضى ذلك الاسم فيجيبه بتجلي ذلك الاسم الذي يجبر نقصه ويقضي حاجته بإفادة مطلوبه كما أن المريض إذا قال:

يا ربّ، فمراده: يا شافي، إذ الحق يريه بذلك الاسم عند إجابته.

وكذا الفقير إذا ناداه أجابه باسمه المغني إذ هو ربّه.

{ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً }

{ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَالِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً }

{ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً }

{ يٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ٱسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً }

{ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيّاً }

{ قَالَ كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً }

{ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيّاً }

{ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً }

{ يٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيّاً }

{ وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً }

{ وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً }

{ وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَياً }

فنادى زكريا عليه السلام ربّه ليهب له وليّاً يقوم مقامه في أمر الدين، وتوسل إليه بأمرين، واعتذر إليه معتلاً بأمرين، توسل بالضعف والشيخوخة والوهن والعجز عن القيام بأمر الدين في قوله: { وَهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً } فأجابه باسمه الكافي فكفاه ضعفه وأعطاه القوّة وأيده بالولد ثم بعنايته به قديماً بقوله: { ولم أكن بدعائك ربِّ شقيّاً } فأجابه باسمه الهادي وهداه إلى مطلوبه بالبشارة والوعد، لأن العناية المقتضية للسعادة المستلزمة لسلب الشقاوة، كما أشار إليها، يلازمها عبارة عن علمه تعالى في الأزل بعين في العدم وتقتضي باستعدادها سعادة تناسبها وهو عين إرادته تعالى ذلك الكمال لها عند وجودها فلا بد من هداية لها إليه، والهداية إنما تتم بالتوفيق، وهو ترتيب الأسباب الموافقة لذلك المطلوب المؤدّية إليه، ولم يجدها موافقة ووجد خلافها فخاف واعتذر إليه بالخوف من الموالي لعدم صلاحيتهم لذلك، فأجابه باسمه الواقي، فوقاه شرّهم، وبامتناع وجود الولي من نسله لعدم الأسباب بقوله:

{ وكانت امرأتي عاقراً } فأجابه باسمه العليم لأنه علم عدم الأسباب الذي تعلل به محتجاً بها عن المسبب وعلم وجوده مع عدمها وما علمه لا بدّ من كونه، كما قالت الملائكة لامرأة إبراهيم عليه السلام:

{ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ }

ولما بشره بالولد، وهداه إلى مقتضى العلم، تعجب منه لضراوته في عالم الأسباب بالحكمة وكرر التعلل بعدم الأسباب بقوله: { أنى يكون لي غلام } الخ، لأنه كان يطلب ولداً حقيقياً يلي أمره ويحذو حذوه ويسلك طريقه في القيام بأمر الدين وإن لم يكن من نسله لعدم أهلية مواليه لذلك، فكرر البشارة وهداه إلى سهولة ذلك في قدرته، فالتمس علامة تدل عليه، فهداه إليها وأنجز وعده باسمه الصادق فرحمه بهبة يحيى له.

فاقتضت الأحوال الأربعة مع حال الوعد والبشارة إجابته بالرحمة عليه بالأسماء الخمسة. فعلى هذا يكون (كـ) إشارة إلى الكافي الذي اقتضاه حال ضعفه وشيخوخته

وعجزه و (هـ) إشارة إلى الهادي الذي اقتضاه عنايته به وإرادة مطلوبه له و (ي) إشارة إلى الواقي الذي اقتضاه حال خوفه من الموالي و (ع) إشارة إلى العالم الذي اقتضاه إظهاره لعدم الأسباب و (ص) إشارة إلى الصادق الذي اقتضاه الوعد. ومجموع الأسماء الخمسة هو: الرحيم بهبة الولد، وإفاضة مطلوبه في هذه الأحوال.

فذكر هذه الحروف وتعدادها إشارة إلى أن ظهور هذه الصفات التي حصل بها هذه الأسماء هو ظهور رحمة عبده زكريا وقت ندائه وذكرها ذكر تلك الرحمة التي هي وجود يحيى عليه السلام. ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: (كـ) عبارة عن الكافي و (هـ) عن الهادي و (ي) عن الواقي و (ع) عن العالم و (ص) عن الصادق والله أعلم.

{ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً }
{ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِم حِجَاباً فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَآ رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً }
{ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً }
{ قَالَ إِنَّمَآ أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً }
{ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً }
{ قَالَ كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً }

{ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيّاً } المكان الشرقي هو مكان العالم القدسي لاتصالها بروح القدس عند تجرّدها وانتباذها عن ممكن الطبيعة ومقرّ النفس وأهلها القوى النفسانية والطبيعية.

والحجاب الذي اتخذته من دونهم هو حظيرة القدس الممنوع من أهل عالم النفس بحجاب الصدر الذي هو غاية مبلغ علم القوى المادية ومدى سيرها، وما لم ترق إلى العالم القدسي بالتجرد لم يمكن إرسال روح القدس إليها، كما أخبر عنه تعالى في قوله: { فأرسلنا إليها روحنا } وإنما تمثل لها بشراً سويّ الخلق، حسن الصورة، لتتأثر نفسها به وتستأنس فتتحرّك على مقتضى الجبلة ويسري الأثر من الخيال في الطبيعة فتتحرك شهوتها، فتنزل كما يقع في المنام من

الاحتلام وتنقذف نطفتها في الرحم فيتخلق منه الولد.
وقد مرّ أن الوحي قريب من المنامات الصادقة لهذه القوة البدنية وتعطلها عن أفعالها عنده كما في النوم، فكل ما يرى في الخيال من الأحوال الواردة على النفس الناطقة المسماة في اصطلاحنا: قلباً، والاتصالات التي لها بالأرواح القدسية يسري في النفس الحيوانية والطبيعية وينفعل منه البدن.
وإنما أمكن تولد الولد من نطفة واحدة لأنه ثبت في العلوم الطبيعية أن منيّ الذكر في تكوّن الولد بمنزلة الأنفحة في الجبن، ومنيّ الأنثى بمنزلة اللبن أي: العقد من منيّ الذكر، والانعقاد من منّي الأنثى لا على معنى أنّ منيّ الذكر ينفرد بالقوة العاقدة ومنيّ الأنثى بالقوة المنعقدة. بل على معنى أنّ القوة العاقدة في منيّ الذكر أقوى والمنعقدة في منيّ الأنثى أقوى وإلا لم يمكن أن يتحدا شيئاً واحداً. ولم ينعقد منيّ الذكر حتى يصير جزء من الولد، فعلى هذا إذا كان مزاج الأنثى قوياً ذكورياً كما تكون أمزجة النساء الشريفة النفس، القوية القوى، وكان مزاج كبدها حارّاً كان المنيّ المنفصل عن كليتها اليمنى أحرّ كثيراً من الذي ينفصل عن كليتها اليسرى، فإذا اجتمعا في الرحم وكان مزاج الرحم قوياً في الإمساك والجذب.
قام المنفصل من الكلية اليمنى مقام الذكر في شدّة قوة العقد والمنفصل من الكلية اليسرى مقام منيّ الأنثى في قوة الانعقاد فيتخلق الولد، هذا وخصوصاً إذا كانت النفس متأيدة بروح القدس، متقوية، يسري أثر اتصالها به إلى الطبيعة والبدن ويغير المزاج ويمدّ جميع القوى في أفعالها بالمدد الروحاني فيصير أقدر على أفعالها بما لا ينضبط بالقياس والله أعلم.
{ ولنجعله آية للناس } دالة على البعث والنشور { ورحمة منا } عليهم بتكميلهم به بالشرائع والحكم والمعارف وهدايتهم بسبب فعلنا ذلك فهو صورة الرحمة الإلهية المعنوية { وكان أمراً مقضيّاً } في اللوح، مقدراً في الأزل.
وعن ابن عباس: فاطمأنت إليه بقوله: { إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً فدنا منها، فنفخ في جيب الدرع، أي: البدن، وهو سبب إنزالها على ما ذكرنا كالغلمة مثلاً والمعانقة التي كثيراً ما تصير سبباً للإنزال. وقيل: إن الروح المتمثل لها هو روح عيسى عليه السلام عند نزوله واتصاله بها وتعلقه بنطفتها، والحق إنه روح القدس لأنه كان السبب الفاعلي لوجوده، كما قال: { لأهب لك غلاماً زكياً }.

{ فَحَمَلَتْهُ فَٱنْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً } { فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً }
{ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَآ أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً }
{ وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً }
{ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيّاً }

واتصال روح عيسى بالنطفة إنما يكون بعد حصول النطفة في الرحم واستقرارها فيه ريثما تمتزج وتتحد وتقبل مزاجاً صالحاً لقبول الروح { فانتبذت به } أي: معه { مكاناً قصيّاً } أي: بعيداً من المكان الأول الشرقي لأنها وقعت به في المكان الغربي الذي هو عالم الطبيعة والأفق الجسماني، ولهذا قال: { فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة } نخلة النفس { فنادها من تحتها } أي: ناداها جبريل من الجهة السفلية بالنسبة إلى مقامها من القلب، أي: من عالم الطبيعة الذي كان حزنها من جهته وهو الحمل الذي هو سبب تشوّرها وافتضاحها { ألاّ تحزني قد جعل ربّك تحتك سرياً } أي: جدولاً من غرائب العلم الطبيعي وعلم توحيد الأفعال الذي خصك الله بها واصطفاك كما رأيت من تولد الجنين من نطفتك وحدها { وهزي إليك بجذع } نخلة نفسك التي بسقت في سماء الروح باتصالك بروح القدس، واخضرّت بالحياة الحقيقية بعد يبسها بالرياضة وجفافها بالحرمان عن ماء الهوى وحياته، وأثمرت المعارف والمعاني، أي: حركيها بالفكر { تُسَاقِط عليك } من ثمرات المعارف والحقائق { رطباً جنياً فكلي } أي: من فوقك رطب الحقائق والمعارف الإلهية وعلم تجليات الصفات والمواهب والأحوال { واشربي } من تحتك ماء العلم الطبيعي وبدائع الصنع وغرائب الأفعال الإلهية وعلم التوكل وتجليات الأفعال والأخلاق والمكاسب، كما قال تعالى:

{ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم }[المائدة، الآية: ٦٦]

{ وقرّي عيناً } بالكمال والولد المبارك الموجود بالقدرة، الموهوب بالعناية { فإمّا ترين من البشر أحداً } أي: من أهل الظاهر المحجوبين عن الحقائق

بظواهر الأسباب وبالصنع والحكمة عن الإبداع والقدرة التي لا يفهمون قولك ولا يصدّقون بك وبحالك لوقوفهم مع العادة، واحتجابهم بالعقول المشوبة بالوهم المحجوبة عن نور الحق { فقولي إني نذرت للرحمن صوماً } أي: لا تكلميهم في أمرك شيئاً ولا تماديهم فيما لا يمكنهم قبوله حتى ينطق هو بحاله.

{ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُواْ يٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً }

{ يٰأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً }

{ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيّاً }

{ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ آتَانِيَ ٱلْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً }

{ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِٱلصَّلاَةِ وَٱلزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً }

{ وَبَرّاً بِوٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً }

{ وَٱلسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً }

{ ذٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ }

{ مَا كَانَ للَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً
فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}

{ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ }

{ فَٱخْتَلَفَ ٱلأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ }

{ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَـٰكِنِ ٱلظَّالِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ }

{ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }

{ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ }

{ والسلام عليّ } في المواطن الثلاثة كما على يحيى لكون ذاتي مجردة مقدّسة لا تحتجب بالمواد حتى في الطفولة، إذ معنى السلام: التنزّه عن العيوب اللاحقة بواسطة تعلق المادة { ذلك عيسى ابن مريم قول الحق }

أي: كلمته التي هي عبارة عن ذات مجرّدة أزلية، كما مرّ غير مرة.

{ ما كان لله أن يتخذ من ولد } لامتناع وجود شيء آخر معه { سبحانه } عن

أن يوجد معه شيء { فإنما يقول له كن فيكون } أي: يبدعه بمجرّد تعلق إرادته به من غير زمان ,{ إنّا نحن نرث الأرض ومن عليها } في القيامة الكبرى بالفناء المطلق والشهود الذاتي.الصدق أصل كل فضيلة، وملاك كل كمال، وخميرة كل مقام، واستعداد كل موهبة.

{ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً }

{ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يٰأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً }

{ يٰأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً }

{ يٰأَبَتِ لاَ تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيّاً }

{ يٰأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً }

{ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يٰإِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيّاً }

{ قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً }

{ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي

عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّاً } { فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً }

{ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً }

{ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً }

{ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً }

{ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً }

{ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً }

{ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِٱلصَّلاَةِ وَٱلزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً }

{ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر } مما سوى الله من الأكوان التي تطلبها وتنسب التأثير إليها { ولا يغني عنك شيئاً } في الحقيقة لعدم تأثيره.

{ قد جاءني من العلم } أي: التوحيد الذاتي { سلام عليك } أي: جرّد الله ذاتك

عن المواد التي احتجبت بها { سأستغفر لك ربّي } سأطلب منه ستر ذاتك بنوره ومحو غشاوات صفاتك بصفاته، ودناءة هيئات نفسك بأفعاله إن أمكن
{ إنه كان مخلصاً } بالكسر، أي مجرّداً ذاته وعلمه في السلوك لوجه الله لم يلتفت إلى ما سواه من وجهة حتى صفاته تعالى، بل نفاها عن ذاته، وهو { مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ } بقوله: { أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ }[الأعراف، الآية:١٤٣].
ومخلصاً بالفتح، أي: أخلصه الله عن أنانيته وأفنى البقية منه فخلص من الطغيان المذكور بالتجلي الذاتي التام، واستقام بتمكين الله إياه كما قال:

{ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَىٰ صَعِقاً فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ }

[الأعراف، الآية:١٤٣] من ذنب ظهور الأنانية { وكان رسولاً نبيّاً } مقام الرسالة دون مقام النبوّة لكونها مبينة للأحكام كالحلال والحرام، منبه على الأوضاع كالصلاة والصيام فهي متعلقة ببيان أحكام المكلفين. وأما النبوّة فهي عبارة عن الإنباء عن المعاني الغيبية كأحوال المعاد والبعث والنشور والمعارف الإلهية كتعريف الصفات والأسماء وما يليق بالله من التحميدات والتمجيدات والولاية فوقهما جميعاً لكونها عبارة عن الفناء في ذات الله من غير اعتبار الخلق فهي أشرف المقامات لكونها تتقدم عليهما لأنها ما لم تحصل أولاً لم تمكن النبوّة ولا الرسالة لكونها مقوّمة إياهما ولهذا قدم كونه مخلصاً في القرآن بالفتح، وأخرت النبوة عن الرسالة لكونها أشرف وأدل على المدح والتعظيم منها ولم يؤخر الولاية عنهام باعتبار الشرف لأنها وإن كانت أشرف لكنها باطنة لا يعرف شرفها وفضلها إلا الأفراد من العرفاء المحققين المخصوصين بدقة النظر دون غيرهم فلا يفيد المدح والتعظيم ولا الاقتصار عليها بقوله مخلصاً وإن كانت أشرف لأنها قد توجد بدونهما بخلاف العكس، فلا يحسن وصفه إلا على هذا الترتيب.
وناديناه من جانب الطور الأيمن } أي: طور وجوده الذي هو نهاية طور القلب في مقام السرّ الذي هو محل المناجاة، ولذا قال: { وقربناه نجيّاً } وسمي كليم الله. وإنما وصفه بالأيمن الذي هو الأشرف والأقوى والأكثر بركة احترازاً عن جانبه الأيسر الذي هو الصدر، لأن الوحي إنما يأتي من عالم الروح الذي هو الوادي المقدس.

{ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً }
{ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً } { أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ
عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّيْنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ
وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ
إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً }
{ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً }
{ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً }

{ ورفعناه مكاناً عليّاً } إن كان بمعنى المكانة فهو قربه من الله ورتبته في مقام الولاية من عين الجمع، وإن كان بمعنى المكان فهو الفلك الرابع الذي هو مقرّ عيسى عليه السلام لما ذكر من كونه مركز روحه في الأصل والمبدأ الأول لفيضانه إذا فاض عن محرك فلك الشمس ومعشوقه { إذا تُتْلى عليهم آيات الرحمن } سمعوا بالنفس من كل آية ظاهرها، وبالقلب باطنها، وفهموا بالسرّ حدّها، وصعدوا بالروح مطلعها، فشاهدوا المتكلم موصوفاً بالصفة التي تجلى بها في الآية فـ{ خرّوا سُجداً } فنوا في ذلك الاسم الذي تجلى به عند ظهوره بتلك الصفة الكاشفة عنها تلك الآية، وبكوا اشتياقاً إلى مشاهدته بسائر الصفات المشتمل عليه الرحمن أو الله وهو بكاء القلب إن لم يكن مستلزماً لبقاء النفس من خوف البعد، كما قال الشاعر:

ويبكي إن نأوا شوقاً إليهم ويبكي إن دنوا خوف الفراق

أضاعوا صلاة الحضور لكونهم في مقام النفس، والحضور إنما يكون بالقلب، ولا صلاة إلا به. ولذلك الاحتجاب بصفات النفس عن مقام القلب لزم اتباع الشهوات { فسوف يلقون غيّاً } شرّاً وضلالاً إذ كلما أمعنوا في اتباعها ازداد حجابهم فازداد ضلالهم وارتكبت الذنوب على الذنوب، فازداد تورّطهم فيها، كما قال عليه الصلاة والسلام: « **الذنب بعد الذنب عقوبة للذنب الأول** »{ إلاّ من تاب } عن الذنب الأول فرجع إلى مقام القلب { وآمن } باليقين { وعَمِل صالحاً } باكتساب الفضيلة { فأولئك يدخلون الجنة } المطلقة بحسب استحقاقهم ودرجتهم في الإيمان والعمل { ولا يظلمون } أي: لا ينقصون مما اقتضاه حالهم ومقامهم { شيئاً }.

{ جَنَّاتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً }
{ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سَلاَماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً }
{ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً }
{ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذٰلِكَ
وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً } { رَّبُّ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً }

{ جنات عدن } مرتبة بحسب درجاتهم في مقام النفس والقلب والروح { التي وعد الرحمن } المفيض بجلائل النعم وأصولها وعمومها { عباده بالغيب } في حالة كونهم غائبين عنها { إلا سلاماً } أي: ما يسلمهم من النقائص ويجردهم عن المواد من المعارف والحكم { ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيّا } أي: دائماً أو بكرة في جنة القلب وقت ظهور نور شمس الروح، وعشيّاً في جنة النفس وقت غروبه.

{ تلك الجنة } المطلقة التي تقع على واحدة منها

{ التي نورث من عبادنا من كان تقيّاً } مطلقاً بحسب تقواه، فإن اتقى الرذائل والمعاصي نورثه جنة النفس أي جنة الآثار، وإن اتقى أفعاله بالتوكل فله جنة القلب وحضور تجليات الأفعال، وإن اتقى صفاته في مقام القلب فله جنة الصفات، وإن اتقى ذاته ووجوده بالفناء في الله فله جنة الذات{ وما نتنزل إلا بأمر ربّك } تنزّل الملائكة واتصال النفس بالملأ الأعلى إنما يكون بأمرين: استعداد أصلي وصفاء فطري يناسب به جوهر الروح العالم الأعلى، واستعداد حاليّ بالتصفية والتزكية ولا يكفي مجرد حصولها فيه، بل المعتبر هو الملائكة: ألا ترى إلى قوله

{ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلاَئِكَةُ }

[فصلت، الآية:٣٠] كيف رتّب التنزل على الاستقامة التي هي التمكين الدال على الملكة. وإلى قوله في تنزّل الشياطين:

{ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ }[الشعراء، الآية: ٢٢٢]

كيف أورد في حصول استعداد تنزّلهم بناء المبالغة الدال على الملكة والدوام فكذا لا تتنزل الملائكة إلا على الصدّيق الخير.

وهـذا الاسـتعداد الثـاني إذا اجتمـع مـع الأول كان علامـة إذن الحـق وأمـره، إذ الفيـض عـام، تـام، غـير منقطـع، فحيـث تأخـر إنمـا تأخـر لعـدم الاسـتعداد، فلـذا لمـا اسـتبطأ الوحـي وقـلّ صـبره نزلـت، أي: ومـا نتنـزّل باختيارنـا بـل باختيـاره وأمـره ليـس إلا. { لـه مـا بـين أيدينـا } مـن أطـوار الجـبروت التـي فوقنـا وتتقـدّم أطوارنـا التـي وجوهنـا إليهـا ولا يحيـط علمنـا بهـا { ومـا خلفنـا } مـن أطـوار الملكـوت الأرضيـة التـي دون أطوارنـا { ومـا بـين ذلـك } مـن الأطـوار الملكوتيـة التـي نحـن فيهـا، كلهـم في ملكـة قهـره وتحـت سـلطنة أمـره وإحاطـة علمـه { ومـا كان ربّـك نسـيّا } ينـسى شـيئاً يسـتعدّ لكـمال فـلا يفيـض عليـه أو تـاركاً لمسـتحق بـدون حقـه بـل يحيـط بـكل الاسـتعدادات علـماً ويفيـض الكـمال عليهـا وينـزل مقتضاهـا مـع الحصـول دفعـة فـإن تأخـر الوحـي فإنمـا كان مـن جهتـك لا مـن جهتـه هـو { ربّ السـموات والأرض ومـا بينهـما } يـرب كلاً منهـما باسـم يخصـه ويدبـره ويفيـض مـا يقتضيـه حالـه عليـه فـيرب الـكل بجميـع أسـمائه { فاعبـده } بعبادتـك التـي يقتضيهـا حالـك حتـى تسـتعدّ لقبـول الفيـض ونـزول الوحـي ولا يكفـي وجـود العبـادة بتهيئـة الاسـتعداد بالتصفيـة مـرة أو مرتـين بـل الـدوام عـلى ذلـك معتـبر، فـدم عـلى ذلـك الصفـاء الموجـب للقبـول { واصطـبر } لعبادتـه بالتوجـه إليـه عـلى الـدوام { هـل تعلـم لـه سـميّاً } مثـلا، فتلتفـت إليـه وتقبـل بوجهـك نحـوه فيفيـض عليـك مطلوبـك.

{ وَيَقُولُ ٱلإِنسَانُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً }

{ أَوَلاَ يَذْكُرُ ٱلإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً }

{ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً }

{ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيّاً }

{ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيّاً }

{ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً }

{ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً }

{ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً }

{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً }
{ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدّاً حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً }

{ ولم يك شيئاً } في عالم الشهادة محسوساً أو شيئاً يعتدّ به، كما قال:

{ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً }[الإنسان، الآية: ١]

لأن الوجود العيني في الأزل قبل الخلق كلا وجود لانطماسه في عين الجمع

{ لنحشرنهم والشياطين } أي: لنحشرنّ المحجوبين المنكرين للبعث مع الشياطين الذين أغووهم وأضلوهم عن الحق لأنّ نفوس المحجوبين تناسب في الكدورة والبعد عن النور نفوس الشياطين، فبالضرورة يحشرون معهم خصوصاً إذا اتبعوهم في الاعتقاد { ثم لنحضرنهم حول جهنم } الطبيعة في العالم السفلي لاحتجابهم بالغواشي الهيولانية والغواسق الظلمانية في الهياكل السجنية مقرنين في الأصفاد، سرابيلهم من قطران { جثياً } لاعوجاج هياكلهم بسبب عوج نفوسهم فلا يستطيعون قياماً { ثم لننزعنّ من كل شيعة } أي: لنخصَّن من كل فرقة من هو أشدّ عتياً على الرحمن بعذاب أشدّ على ما علمنا من حاله، فنحن أعلم به منه، فنصليه بعذاب هو أولى به.

{ وإنّ منكم إلاّ واردها } أي: لا بدّ لكل أحد عند البعث والنشور أن يرد عالم الطبيعة لكونها مجاز عالم القدس { كان على ربّك حتماً مقضيا }

أي: حكماً جزماً، مقطوعاً به. ومن بعث بردّ روحه إلى الجسد لا يمكنه الجواز على الصراط إلا بالجواز على جهنم، لأن المؤمن لما جاء أطفأ نوره لهبها فلم يشعر بها. كما روي أنها تقول: جز يا مؤمن فإن نورك أطفأ لهبي. ولو سألته بعد دخول الجنة: كيف كان حالك في النار؟ لقال: ما أحسست بها.

كما سئل الصادق عليه السلام: أتردونها أنتم أيضاً؟ فقال:

جزناها وهي خامدة. وعن ابن عباس: يردونها كأنها أهالة.

وعن جابر بن عبد الله أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال:

« إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض: أليس وعدنا ربنا أن نرد النار؟ فيقال لهم: وردتموها وهي خامدة «

وعنه رحمه الله أنه سئل عن هذه الآية فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

« الورود الدخول لا يبقى برّ ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم عليه السلام حتى أنّ للنار ضجيجاً من بردها «

وأما قوله: **{ أُوْلَـٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ }**[الأنبياء، الآية:١٠١] فالمراد عن عذابها.

{ ثم ننجي الذين اتّقوا } لتجردهم بالجواز على الصراط الذي هو سلوك طريق العدالة إلى التوحيد كالبرق { ونذر الظالمين } الذين نقصوا نور استعدادهم في الظلمات أو وضعوه غير موضعه { فيها جثياً } لا حراك بهم لتوردهم في المواد الظلمانية كما قال عليه السلام: **« الظلم ظُلُمات يوم القيامة «.**

{ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَواْ هُدًى
وَٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً }
{ أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً }
{ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْداً }
{ كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدّاً }
{ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً }
{ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً }
{ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً }

{ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى } أي: كما يمد أهل الضلالة في ضلالتهم بالخذلان مدّاً يزداد فيه ضلالهم واحتجابهم كلما أمعنوا في جهلهم ورذائلهم كذلك يزيد الله المهتدين بالتوفيق كلما عملوا بما علموا استعدوا لقبول علم آخر فورثوه كما قال عليه السلام: **« من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم «** فيزيدهم عند العمل بمقتضى العلم اليقيني عين اليقين، وعند العمل بمقتضاه حق اليقين { والباقيات الصالحات } من العلوم والفضائل { خير عند ربك ثواباً } لأدائها إلى التجليات الوصفية والجنات القلبية { وخير مردّاً } بالرجوع إلى الذات الأحدية.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَاطِينَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً }

{ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً }

{ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْداً }

{ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً }

{ لاَّ يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْداً }

{ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَداً } { لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً }

{ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدّاً }

{ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَداً }

{ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً }

{ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ إِلاَّ آتِي ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْداً }

{ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً }

{ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَرْداً }

{ ألم تر أنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً } قد مرّ في باب تنزّل الملائكة أن النفس الخيّرة تستمد من الملكوت والملائكة السماوية لاتصالها بهم في الصفاء والتجرّد والنورية، والنفوس الشريرة تستمد من النفوس المظلمة الأرضية لمناسبتها إياهم ومجانستها لهم في الظلمة والكدورة والخبث، فتعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدّة ظلمتهم وتماديهم في الغواية والاحتجاب، حيث تنّزل عليهم الشياطين دائماً فتؤزهم أي: تحرّضهم وتخذلهم بإلقاء الوساوس والهواجس من أنواع الشرّ على التوالي { إنما نعدّ لهم عدّاً }

أي: أنفاسهم المقرّبة لهم إلى المصير إلى وبال كفرهم وأعمالهم وعذاب هيئاتهم وعقائدهم، فإن لكل أجلاً معيناً سيصير إليه عن قريب.

{ يوم نحشر المتّقين إلى الرحمن وفداً } إنما ذكر اسم الرحمن لعموم رحمته بحسب مراتب تقواهم كما ذكر في قوله:

{ مَن كَانَ تَقِيّاً }[مريم، الآية: ٦٣]،

ولهذا لما سمعها بعض العارفين قال: ومن كان مع الرحمن فإلى من يحشر؟ فأجابه بعضهم بقوله: من اسم الرحمن إلى الرحمن ومن اسم القهّار إلى اسم اللطيف.
فإن المتّقي عن المعاصي والرذائل وصفات النفس الذي هو في أول درجة التقوى قد يحشر إلى الرحمن في جنة الأفعال ثم الصفات ثم بعد الوصول إلى الله في جنة الصفات له سير في الله بحسب تجليات الصفات، وإذا انتهى السير إلى الذات يكون السير سير الله { وفداً } مكرمين.
{ ونسوق المجرمين } لأعمالهم الخبيثة { إلى جهنم } الطبيعة { ورداً } كأنهم إبل عطاش فيوردهم النار { لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً } هذا العهد هو ما عاهد الله أهل الإيمان من الوفاء بالعهد السابق بالتوبة والإنابة إليه في الصفاء الثاني بعد الصفاء الأول، وذلك الانسلاخ عن حجب صفات النفس والاتصاف بصفات الرحمن والاتصال بعالم القدس الذي هو حضرة الصفات ولهذا ذكر اسم الرحمن المعطي لأصول النِعَم وجلائلها المشتمل على سائر الصفات اللطيفة، أي: لا يملك أحد أن يشفع له بالأمداد الملكوتية والأنوار القدسية إلا من استعدّ لقبول الرحمة الرحمانية واتصل بالجناب الإلهي بالعهد الحقيقي.
وعن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه ذات يوم:

« أيعجز أحدكم أن يتخذ عند كل صباح ومساء اللهمّ فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أني أعهد إليك أني أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأنّ محمداً عبدك ورسولك، وأنك إن تكلني إلى نفسي تقرّبني من الشرّ وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عهداً تؤتنيه يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد «.

{ إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً } لكونهم في حيز الإمكان ومكمن العدم لا وجود لهم ولا كمال إلا به، أفاض باسم الرحمن وجوداتهم وكمالاتهم، فهم أنفسهم ليسوا شيئاً، فلو لم يعبدوه حق عبادته باستعدادات أعيانهم في العدم لما وجدوا، ولو لم يعبدوه بعد الوجوه بالقيام بحقوق نعمه التي أنعمها عليهم لما كملوا، فهم مربوبون، مجبورون وفي طيّ قهره وملكته مقهورون.

{ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدّاً }

{ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً }

{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً }

{ إنّ الذين آمنوا } الإيمان الحقيقي العلمي أو العيني { وعملوا الصالحات } من الأعمال المزكية المصفية المعدّة لقبول تجليات الصفات بالتجرد عن ملابس صفاتهم { سيجعل لهم الرحمن وداً } كما قال:

« لا يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها «

وفي الحقيقة هذا الودّ أثر ونتيجة العناية الأولى المستفادة من قوله:

{ **يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** }[المائدة، الآية:٥٤]،

فإذا أحبه قبل الظهور في مكمن الغيب بمحبة الاجتباء ألزمه حبّه الله عند البروز وحرّكه إلى الوفاء بالعهد السابق فتجدّد ذلك العهد بالعقد اللاحق الذي هو العهد مع الله بالوفاء بذلك في متابعة الحبيب المطلق كما قال:

{ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** }[آل عمران، الآية: ٣١].

وإن صحت المتابعة في الأعمال والأحوال أحبه الله بمحبة الاصطفاء فوق المحبة التي هي ثمرة المحبة الأولى لكون الأولى عينية كامنة ولكونها كمالية وبارزة وقعت محبته في قلوب الخلق وظهر له القبول عند أهل الإيمان الفطري.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« إذا أحبّ الله عبداً يقول الله تعالى: يا جبريل قد أحببت فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: أن الله تعالى قد أحبّ فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يضع له المحبة في الأرض «

وعن قتادة: ما أقبل عبد إلى الله إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه.

وهذا معنى قوله: { سيجعل لهم الرحمن وداً } والله أعلم.